

أعجوبة الحياة: كيف تحوّلت قصيدة جبرا إلى أغنية

أ. تانيا تماري ناصر: بيرزيت

أ. أجنس بشير: عمّان - ستوكهولم

توطئة:

في عمّان، وفي أواخر سنة 1992 عرض الشاعر جبرا إبراهيم جبرا على المغنية السوبرانو تانيا تماري ناصر مجموعتين شعريّتين غير منشورتين من قصائده، وبعد الاطلاع عليهما، شعرت تانيا برغبة في غناء بعض القصائد، ولكن بأسلوب غير مألوف في الغناء العربيّ، فاختارت إحداها، وناقشت الموضوع مع السيدة أجنس بشير، وهي عازفة وملحنة، تلقت تدريبها الموسيقي في موسكو، فرحبت بالفكرة وبدأت بالعمل. وبعد فترة، ومع ملاحظاتٍ واقتراحاتٍ من الشاعر، تبلورت من تلك القصيدة أغنية جميلة نالت استحسانه وموافقة.

بعد هذا اختارت تانيا تماري ناصر قصيدتين أخريّين (من مجموع أربع وعشرين) وبأسلوب نفسه وبالتعاون مع المغنية والشاعر عملت أجنس بشير على تأليف موسيقى خاصّة بهما. ونجحت التجربة لما تميزت به من تجانس كبير بين الأغاني الثلاث، مما لاقى تجاوباً عميقاً من قبل زهاء ألف شخص اجتمعوا في حديقة دارة الفنون - عمان وبين أثار كنيسة بيزنطية، ليستمعوا في أيلول 1993، إلى أول عرض لهذه الأغاني. واشتركت في الحفل راقصة الباليه رانية قمحاوي، فوشت الأغاني بلمحات من الرقص الحديث. وفي وقت لاحق عملت أجنس على تأليف موسيقى لثلاث قصائد أخرى، انتقتها تانيا، وبعد شهور عدة وبالتعاون مع الشاعر أيضاً، انتهى العمل بنجاح، واستكملت المتوالية الغنائية إذ اندمجت الكلمة والموسيقى والصوت في وحدة متكاملة، متناسقة، تجمع بين الجمال الشعري وروعة التعبير.

تانيا تماري ناصر:

منذ سنوات عديدة وأنا أبحث عن الحديد وعن التجديد في الغناء العربي، فبالرغم من توجهي وتدريبني في الغناء الكلاسيكيّ العربيّ إلا أنني أتطلع دوماً إلى التعبير عن ذاتي وعن انتماءاتي عن طريق أداء أغنية عربية متميزة، تجمع بين عشقي للأدب العربي الحديث والموسيقى الكلاسيكية، أسعى لأن تكون هذه الأغنية بعيدةً عن النمط الطربيّ، تتفاعل فيها عناصر ثقافتنا العربية، وتبلور من خلالها هوية فنية خاصة تجد مكانتها في إطار ثقافة عالمية معاصرة. ومن هذا المنطلق وفي محاولةٍ لإيجاد مثل هذه الأغنية غير المألوفة في مجال الموسيقى الغربية كانت تجربتي مع قصائد جبرا إبراهيم جبرا وموسيقى أجنس بشير.

في سنة 1992 أطلعني الصديق الراحل جبرا إبراهيم جبرا على مجموعتين جديدتين غير منشورتين من قصائده، وما أن بدأت بقراءتهما حتى شعرتُ أنّ بعض هذه القصائد يلخّ عليّ بأن أغنيها. توقفت عند إحداها، ومطلعها: "بين الخرائب رحى أبحث عن نبتة/ شقّت الإسمنت والحجر..". كانت معانيها وموسيقاها الداخلية تنبض بحسّ جماليّ روحيّ خاصّ، تفاعلتُ معه بعمقٍ، وأحسستُ أنّ عليّ أن أجسّد هذه الصور والمعاني بالغناء. أخبرتُ جبرا برغبتي، وطلبتُ منه إذنًا لهذا الغرض. فأجابني مندهشاً: "تغنين قصائدي؟ لم أحلم يوماً أن يطلب أحدٌ مني هذا.. فأنت تدركين عشقي الكبير للموسيقى، والآن أجد من يرغب في دمج كلماتي بالموسيقى... هذا شيء جميل، جميل! كانت سعادته كبيرة. وعرضتُ فكرة تحويل القصائد إلى أغاني على صديقتنا المشتركة الموسيقية: "أجنس بشير". فعدا قدراتها في التأليف والعزف كانت وهي الروسية الأصل تحب الشعر العربي الحديث، ومع أنها لا تقرأ العربية، فإنها تسمع الشعر، وتفهمه، وتتجاوب مع إيقاعاته وموسيقاه، وكانت تحترم جبرا وتقدر ما قدّمه للعالم العربيّ من مساهمات متميزة أدبية وفنية، وتعرف عن كثبٍ إلمامه العميق وتدوّقه الرفيع للموسيقى الكلاسيكية، لذا كانت متحمّسةً لخوض هذه المغامرة الفنية، وخائفةً في الوقت نفسه، فهي تريد أن تقدم الأمل لقصائد جبرا وللغناء العربي.

تجربة خلق متوالية غنائية! كانت تجربة غنيّة، وممتعة: ابتدأت بأغنية واحدة، وانتهت بستّ، جميعها مبنية على قصائد من مجموعتين شعريتين لجبرا... ساعات طويلة من التدريب والصقل، كانت أجنس تضع الموسيقى على مراحل: أغنيها، ناقشها، نغّير ونحوّر، محاولتين دائماً أن نكون أمينتين في نقل الصور الشعرية، والمحافظة على الأداء السليم للألفاظ والكلمات، وباستمرارٍ كنّا نسجّل محاولتنا على أشرطةٍ، نرسلها إلى جبرا في بغداد، وهو بدوره يسمع، وينقد، فيقترح إعادة هذه الكلمة أو تلك، أو حذف هذا المقطع أو ذاك، وكنا كلّما سنحت لجبرا فرصة القدوم إلى عمّان نجتمع ثلاثتنا، نُسَمِعُه ما توصّلنا إليه، وناقش معه جميع التفاصيل: الكلمة، الموسيقى، الأداء، حتّى توصّلنا إلى ما شعرنا جميعاً أنّه عملٌ متجانسٌ، متكاملٌ، يمكن أن يكون نمطاً جديداً في مجال الأغنية العربية؛ نمطاً قريباً مما يُسمّى في الموسيقى الكلاسيكية بـ Art Song أو الأغنية الفنّية. وهكذا، وُلدت "أعجوبة الحياة" متواليةً غنائيةً، وأخذت عنوانها من إحدى القصائد المغناة.

كان آخر لقاءٍ لنا مع جبرا في 4 آب 1994، غنّيتُ له المتوالية بأكملها، فقال: أشعر أنّ فترة الخلق والتأليف قد انتهت، وما عليكم الآن إلا أن تقدّموا هذا العمل إلى الجمهور، وتشاركاه فيه، وتستمعا إلى حكمهم عليه! كانت لحظةً لا تُنسى، مليئةً بالفرح لنا جميعاً. انتشينا بروح الإنجاز والخلق والإبداع. وتكرّماً لجبرا ولما نكّته له من محبة وتقدير، اتفقنا، أجنس وأنا، أن نقدم أول عرضٍ للمتوالية في بغداد، وعلى شرف جبرا وبحضوره؛ فهناك كتب جبرا قصائده، وهناك خاض غمار تجارب التجديد في الفنّ والأدب، وهناك أيضاً تعرفت أجنس بشير على الثقافة العربيّة وأحببتها وتفاعلت معها.

بدأ جبرا بترتيب زيارتنا المزمعة إلى بغداد، وكان الموعد المقترح شباط 1995. ولكن فجأةً، ودون إنذارٍ، حدث ما حدث، ورحل جبرا في 12 ديسمبر 1994 دون أن تتحقّق الأماني والأحلام. حزّنا كبير - وفقدان جبرا لا يعوّض، ولكن، عزّاؤنا الوحيد - أجنس وأنا - أنّ جبرا واكب العمل حتى نهايته، وكان راضياً عنه، فرحاً به، تدمع عيناه وهو يستمع إلى كلمات

قصائده تنصهر بالنغم، ويقول بصوتٍ مفعمٍ بالعاطفة والدهشة: هذا عمل عظيم... هائل... جميل... جميل!
هكذا سنسمعه دائما كلما قدّمنا هذه المتواليّة الغنائية. وهكذا سيكون معنا دائما كلّما احتفلنا بـ "أعجوبة الحياة".

أجنس بشير:

عندما أستعرض إنجازاتي في تأليف الموسيقى، أجد أنّ لكلّ مقطوعةٍ ألّفتها شخصية وقصة خاصة مرتبطة بها؛ فللمتواليّة الغنائية: "أعجوبة الحياة" التي قمتُ بتأليفها مكانة متميزة في قلبي، ورحلتي معها كانت ممتعة وشيقة.

في سنة 1992 سألتني "تانيا تماري ناصر" إن كنتُ أرغب في تأليف أغانيّ مبنية على قصائد لجبرا إبراهيم جبرا، فتردّدتُ في الإجابة، إذ كنتُ خائفةً من عدم إيفاء اللغة العربية حقّها، ولكن تانيا أصرّت، وشجّعني بأن أحاول تأليف أغنية واحدة في الأقل. فوافقتُ، وكانت روح المغامرة تخمّرني، وقد سنحتُ لي فرصة محاولة إضافة شيء جديد في عالم الموسيقى العربية عن طريق تجربة التوفيق بين الشعر العربي الحديث وأسلوب الغناء الأوبرالي.

اختارت تانيا قصيدةً من مجموع أربع وعشرين، وبدأت التجربة وألّفتُ أغنيةً نالت رضى جبرا، الذي قال بتأثر شديد عند سماعها: لا يمكنني أن أصدّق أنّ لأشعاري القدرة على خلق موسيقى بهذا الجمال. كانت الدموع في عينيه وكان هذا إطاراً عظيماً لي. وشعرْتُ بعمق التجربة وسعادة العمل مع جبرا وتانيا.

بعد هذه البداية المشجّعة، تواصل العملُ حتى انتهيتُ من تأليف خمس أغانيّ أخرى، وضعت جميعها في أسلوب ما يُسمّى في الموسيقى الكلاسيكية بـ البالاد Ballad أو الحكاية المعنّاة أمثال الليد الألماني Leid أو الرومانس الفرنسي Romance. وقد ألهمتني القصائد نفسها، بمواضيعها الشاعرية الغنائيّة التي تدور حول الحب وأعجوبة الحياة في زمن الموت، على

استعمال هذا الأسلوب الموسيقيّ بالذات. ولامتحان التجربة عرضنا أول ثلاث أغاني منها في حفلٍ خاصّ في أيلول 1993 فلاقت استحسان الجمهور، وتشجيعهم، ممّا مدّنا بارتياح كبير. أشعر بالامتنان لتانيا لإصرارها على تأليف هذه الأغاني، خاصة بعد أن تفاعلت مع قصائد جبرا المليئة بالمعاني الفلسفية العميقة. وسأذكر دوماً وبكلّ سعادة، العلاقة الحميمة التي جمعتنا أثناء العمل على هذه القطعة الموسيقية.

في آخر لقاء لنا معاً، وحرصاً منّا على مشاركة أوسع عددٍ من المهتمين ونشر المتواليات عالمياً، قررنا أن يقوم جبرا بترجمة قصائد المتواليات ووضع مقدّمة لها باللغة الإنجليزية. وبالفعل قام جبرا بهذا، قبل فترة قليلة من وفاته المفاجئة، وقبل أن يشهد أول أداء لهذا العمل بأكمله. إن ذكرى العمل على هذه المتواليات سترافقني دائماً. ولا يسعني إلا أن أذكر الأشخاص الذين ساهموا بتشجيعهم واقتراحاتهم البناءة، وهم: السيد كفاح فاخوري، السيد منير بشير، السيدة ربما ناصر ترزي، السيدة سامية غنوم، السيد باتريك لاما، السيد وسام بستاني، السيد أسعد محمد علي، الدكتور عبد الواحد لؤلؤة. إني شاكرة لجميع هؤلاء، وأخصّ الشكر تانيا وجبرا، اللذين أعطياني فرصة العمل على هذه التجربة الرائعة.

ملاحظات إضافية حول غناء قصائد جبرا إبراهيم جبرا:

من الجدير بالذكر أنّه كانت لتانيا تمّاري ناصر تجربة أخرى في غناء قصائد لجبرا - عدا المتواليات الغنائية "أعجوبة الحياة" من تلحين السيدة أجنس بشير. وهي غناء متواليات "عبير الصخر" من تلحين الموسيقار الفلسطيني أمين ناصر، والمبنية على سبع قصائد محورها فلسطين، تعبّر عن علاقة جبرا الحميمة بوطنه الأم. هذه القصائد التي كانت تانيا قد اختارتها مع جبرا قبل وفاته المفاجئة عام 1994، التي حالت دون سماعه لها، حيث اكتمل تلحينها في عام 1998.

الملحق: أعجوبة الحياة

متوالية غنائية مبنية على ستّ قصائد لجبرا إبراهيم جبرا
(من ديوان: متواليات شعرية – بعضها للطف، وبعضها للجسد)

موسيقى: أجنس بشير

غناء: تانيا تماري ناصر

1994

الأغاني

أجل عرفتها

يا ليل

أُسمي الأشياء الجميلة باسمها

شمسها وضحككتها

بين الخرائب

تتراكض الألحان

أجل عرفتها

أجل عرفتها. عرفتها كلّها

ورأيت الوجوه الحلوة تكلح وتنهار

والعيون الحوراء تتحجّر. وتشعّ غباءها

والرؤوس الكبيرة تعلن الخواء

والدنيا التي رقصت ذات يوم

على كفّي

كإلهة مزقها الشبق

رأيتها تفرط ساقطة

في الطين وفي الرغام

والضاحكات يوما في صباحات العشق

رحن يعولن كالنائحات

في المآتم المهجورة

... ..

ثم جئت أنت.

كرؤيا طلعت، كروح

شقت حجب الليل، وسطعت

أعجوبة للحياة في زمن الموت

ونبشت في أعماقي

شيطان الفرح بالصور المستحيلات

وفجرت وعيي من جديد

... ..

وأعدت لي صياغة الدنيا

إلهة تنهض من الطين ومن الرغام

ريانة كوجنتيك، شفتيك

منحوتة كرخام قوامك

عارية مسريلة بألوان الجلنار.

يا ليل

يا ليل كم مرعب أنت

إذ تأتي بها من عمق الظلام

باهرة كالشمس

لألمسها، طرية كزهرة

مثقلة الأوراق بالندى
ثم تسحبها مني. برفق
بقسوة. إلى ظلام
كأبواب الحديد. لا يخترق. لا يخترق
كم مرعب أنت يا ليل
تدور بي معها
في طرقات المدينة
... ..
ثم تسحبها مني
برفق. بقسوة. إلى ظلام
كأبواب الحديد. لا يخترق.
كم مرعب أنت يا ليل. ولكن...
إذ تتزيا بقوامها. ما أجملك
أسمّي الأشياء الجميلة باسمها
أسمّي الأشياء الجميلة باسمها..
والأسماء كالأشياء التي أحبها..
تتلّس عمدا رسمها
لمعة الفجر مبتسما
بعد ليل من الرعب
أدعوها باسمها
وكلّ قد يتثنى
وكلّ ساق من الورد تتأوّد
وكلّ شكل يمرق شامخا

كأنّه نسر يخلق
يفصل لي دوما رسمها
ويتهجأ همسا اسمها
حتى باتت الأذن ترى
في كلّ مكان جسمها
والعين تسمع
في كلّ مكان اسمها

شمسها وضحكتها
الشمس إن سطعت
فتلك ضحكتها
والزوابع إن جنّت
فهي أنا المجنون
بشمس ضحكتها
والأرض إن زلزلت
فذلك قلبي
يتفجّر توقا
لالتقاط اللظى
المتساقط من شمسها
وضحكتها

بين الخرائب

بين الخرائب رحت أبحث عن نبتة
شقت الإسمنت والحجر بقوامها
وإذا بزهرة صغيرة

مجرد أفعوانة
نبئت خطأ بين الركّام
راحت تتمايل مع نسيمٍ هبّ فجأة
حاملا رائحة الدمار
فاندهش لقلبها الأصفر الندي
وذهب وعاد وهبّ عليها حانيا
لتميل معه. مرة بعد مرة
إلى أن غارت الشمس منهما
وأحرقتهما معا
فالأشياء تتهافت - تتساقط
والمركز ما عاد يمسك الأطراف
وفي السمّت منها جميعا
عين تصبُّ الشواظ
... ..
وفي زمن الخراب والجفاف
تكثر في الأرض الزواحف
... ..
تتساقط الأشياء حبيبي
في غياب الخضرة والماء
والمركز ما عاد يمسك الأطراف
وأنت حبيبي خضرتي ومائي
تتراكض الأبحان
تتراكض الأبحان..

تراكض الدم في عروقي
عند مرآها
فيهللّ دمي لعينيها
ويتضحك مع كلّ إيماءة
من يديها
وإذا به يشجي
إن هي رقت بجزئها
أو آهة ندت
عن شفيتها
تتراكض الألمان
تراكض الدم في عروقي
عند مرآها
كأنها الموجة تعلقو
ببحارها هادرة
لتحط بغمرها على عيني..
فيهلل دمي لرب السماء الذي خلق
من أروع الأنعام أخيرا
جسدا منتفضا يرى..
متمثلا فيها
من فرعها حتى قدميها